

التقلبات المناخية تطارد استقرار الرحل بالمغرب







يشعر موحا أو شعلي الذي اعتاد العيش رفقة أسرته على الترحال في جنوب شرقي المغرب أن كل «شيء تغير من حوله». ويقول بأسى «لم أعد أجد نفسي في هذا العالم، حتى الطبيعة صارت ضدنا». ويواجه أو شعلي مثل باقي الرحل القلائل الذين لا يزالون يعيشون وفق هذا النمط التقليدي، قساوة الجفاف الذي جعل الحصول على المياه والكلأ للماشية أمراً معقداً، فضلاً عن ظروف اجتماعية صعبة. واضطر مع عائلته إلى أن يحطوا الرحال في منطقة خلاء تبعد حوالي 60 كيلومتراً عن بلدة الريش الصغيرة، قرب نهر جاف.

ونصب الرجل الذي يغطي رأسه بوشاح أسود وتخترق محياه تجاعيد، قرب قرية أملاكو، خيمتان نسجتا من الصوف الأسود وأكياس الأعلاف الملونة وبقايا ملابس.

كل شيء يدور حول المياه في حياة الرجل، لكنها «أصبحت نادرة بينما ترتفع درجات الحرارة، يضربنا الجفاف دون أن نستطيع فعل أي شيء في مواجهته»، يقول الرجل الذي ينتمي لقبيلة آيت عيسى إزم الأمازيغية: يعتمد الترحال الرعوي على التنقل سعياً وراء الكلاً للماشية، وهو نمط معمول به في المغرب منذ آلاف السنين، لكنه يتجه اليوم نحو الاندثار. لا يتعدى عدد الرجل اليوم نحو 25 ألف شخص، وفق آخر إحصاء للسكان في المغرب عام 2014، مقابل نحو 70 ألفاً في عام 2004، ما يمثل تراجعاً بقرابة الثلثين في عشرة أعوام.

ويشهد المغرب هذا العام أسوأ موجة جفاف منذ أربعة عقود، لكن الوضع مرشح للأسوأ تدريجياً في أفق عام 2050 بفعل تراجع الأمطار (-11%) وارتفاع سنوي للحرارة (+1.3 درجات)، وفق تقديرات وزارة الزراعة.

في الظروف العادية، كان رحل قبيلة آيت عيسى إزم يقضون الصيف في وادي إملشيل المحاط بالجبال حيث يكون الجو رطباً، بينما يتجهون إلى نواحي محافظة الرشيدية المجاورة الأكثر اعتدالاً في الشتاء.

لكن هذا المسار «صار جزءاً من الماضي، اليوم نذهب فقط أين نجد القليل من الماء لإنقاذ ماشيتنا»، كما يقول موحا أوشعلي.

وليس المناخ هو العامل الوحيد الذي سرّع تدهور ظروف حياة الرجل. ويوضح رئيس جمعية رحل آيت عيسى إزم موحا حداشي أن «ندرة الكلاً ترجع أيضاً إلى تملك الأراضي في المنطقة والاستثمارات الزراعية فيها». ويضيف «هناك مستثمرون زراعيون يسيطرون على الفضاءات التي كانت ترعى فيها مواشي الرجل». «كما يواجه الرجل نوعاً من «العداء» من طرف بعض القرويين الذين يرفضون فكرة أن يستقروا في «مناطقهم».